

النَّوْعُ الحَادِي وَالتَّسْتُونَ

فِي خَوَاتِمِ السُّورِ

هي أيضاً مثل الفواتح في الحُسْن؛ لأنها آخر ما يَقْرَعُ الأسماع، فلهذا جاءت متضمّنة للمعاني البديعة، مع إيدان السامع بانتهاء الكلام، حتى لا يبقى معه للنفوس تشوّفٌ إلى ما يُذكر بعد، لأنها بين أدعية ووصايا وفرائض، وتحميد وتهليل، ومواعظ، ووعد ووعد، إلى غير ذلك.

كتفصيل جملة المطلوب في خاتمة الفاتحة، إذ المطلوب الأعلى: الإيمان المحفوظ من المعاصي المسيّبة لغضب الله والضلال، ففَصَّلَ جملة ذلك بقوله: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. والمراد: المؤمنون، ولذلك أطلق الإنعام ولم يقيد ليتناول كلَّ إنعام، لأن من أنعم الله عليه بنعمة الإيمان فقد أنعم عليه بكل نعمة، لأنها مستتبعة لجميع النعم، ثم وصفهم بقوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾؛ يعني أنهم جمعوا بين النعم المطلقة وهي نعمة الإيمان، وبين السلامة من غضب الله تعالى والضلال المسيّبين عن معاصيه وتعدي حدوده.

وكالدُّعاء الذي اشتملت عليه الآياتان من آخر سورة البقرة.

وكالوصايا التي خُتِمت بها سورة آل عمران: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ الآية.

والفرائض التي خُتِمت بها سورة النساء، وحسُنَ الخُتم بها لما فيها من أحكام الموت الذي هو آخر أمر كلِّ حيٍّ، ولأنها آخر ما أنزل من الأحكام^(١). [البخاري: ٤٦٠٥، ومسلم: ٤١٥٢ و٤١٥٣، وأحمد: ٤١٨٦٣٨].

وكالتبجيل والتعظيم الذي خُتِمت به المائة.

وكالوعد والوعيد الذي خُتِمت به الأنعام.

وكالتحريض على العبادة بوصف حال الملائكة الذي ختمت به الأعراف.

وكالخص على الجهاد وصلة الأرحام الذي ختم به الأنفال.

وكوصف الرسول ومدحه، والتهليل الذي ختمت به براءة.

وتسليته عليه الصلاة والسلام الذي ختمت به يونس، ومثلها خاتمة هود.

ووصف القرآن ومدحه الذي ختم به يوسف.

والوعد والرد على مَنْ كَذَّبَ الرسول الذي ختم به الرعد.

ومن أوضح ما أذن بالختم خاتمة إبراهيم: ﴿هَذَا بَلَدٌ لِّلنَّاسِ . . .﴾ الآية، ومثلها خاتمة الأحقاف،

(١) ولفظ مسلم: «آخرُ سورة نزلت براءة»، وآخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلِمَةِ﴾.

وكذا خاتمة الحجر بقوله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾؛ وهو مفسر بالموت، فإنها في غاية البراعة. وانظر إلى سورة الزلزلة كيف: بُدئت بأهوال القيامة وُخِّتت بقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [٧] وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

وانظر إلى براعة آخر آية نزلت، وهي قوله: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَىٰ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]. وما فيها من الإشعار بالآخرة المستلزمة للوفاة.

وكذلك آخر سورة نزلت وهي سورة النصر، فيها الإشعار بالوفاة، كما أخرج البخاري [٤٩٧٠] من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن عمر سألهم عن قوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، فقالوا: فتح المدائن والقصور، قال: ما تقول يا ابن عباس؟ قال: أجلٌ ضُربَ لمحمد، نُعيَتْ له نفسه. [واحد: ٣١٢٧].

وأخرج أيضاً عنه قال: كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدر، فكان بعضهم وجد في نفسه، فقال: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا، ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إِنَّهُ مَنْ قَدْ عَلِمْتُمْ. ثم دعاهم ذات يوم، فقال: ما تقولون في قول الله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نَصَرْنَا وَفَتْحَ عَلَيْنَا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً. فقال لي: أأُكْذِبُكَ تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه به، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، وذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، فقال عمر: إني لا أعلم منها إلا ما تقول.

